الفصل

2

التجـارب

كانت مارثا بيرنيز امرأة ذات تأثير كبير على سيغموند فرويد، امرأة ذكية وجذابة عمرها 21 سنة عندما التقى الزوجان في شهر نيسان من عام 1882 وكان عمر فرويد حينذاك 26 سنة. امتازت عائلة بيرنيز بالثقافة العالية إذ كان جدها إسحاق بيرنيز Isaac Bernays كبير الحاخامات اليهود في هامبورغ وكان اثنان من أعمامها قد تعلما في الجامعات الألمانية. أما أبوها بيرمان Berman فقد كان تاجراً وعمل أيضاً سكرتيراً لشخصية اقتصادية مشهورة في ڤيينا هو لورينز ڤان ستاين Lorenz Von Stein. جاءت عائلة بيرنيز إلى ڤيينا قادمة من هامبورغ في ألمانيا في عام 1869 حينما كانت مارثا ثمانية أعوام وأصبح بين عائلتي بيرنيز وفرويد صداقة. وغالباً ما كانت مارثا تزور شقيقات فرويد وتزوج شقيق مارثا إلي Eli من شقيقة سيغموند أنّا في عام 1883.

obeikandl.com

لم تكن مارثا ذاتها مثقفة على كافة المعايير لكنها كانت مع ذلك متربية تربية تكفيها في زمانها. فقد كانت على إطلاع بالأدب الألماني وكانت قارئة شرهة في المساء فقط. لم تسمح لنفسها قط أن يمضي وقت ضائع يمكن أن تقوم فيه بعمل ما أثناء اليوم. ليس هناك إلا النذر القليل عما تم تدوينه من أفكار لها حول خطبتها لفرويد، كما لم يتم الكشف العلني عن رسائلها إلى فرويد إلا في عام 2000.

وفي الأعوام اللاحقة أظهرت مارثا مواهبها في الإدارة الرصينة والفعالة لشؤون بيتها وقد تحملت وتصدت لمشاعر الغيرة عند فرويد أثناء فترة الخطوبة (كما دلت رسائله إليها على ذلك) واستطاعت فيما بعد أن ترعى وتتدبر شؤون بيت فرويد، الذي احتوى على ستة أطفال وعدد من الخدم، بعناية وصبر. كانت مارثا آمنة مطمئنة لا تتكدر بسهولة، وتستطيع أن تتحكم بمشاعرها إلى درجة تبدو معها باردة عاطفياً. استذكر ابنها مارتن Martin فيما بعد حادثاً حصل معه عندما وقع على قطعة من الأثاث المنزلي وجرح رأسه فتلطخ بالدماء لم تصرخ مارثا أو حتى لم تضع جانباً خياطتها وعوضاً عن ذلك طلبت ببساطة من المربية أن تستدعي الطبيب الذي يقطن في نفس الشارع وتابعت خياطتها.

وخلال فترة زواجها كانت مارثا مديرة فعالة وهادئة. وكما جاء على لسانها في أحد المرات «أتجنب أي نوع

مارثا بيرنيز في عام 1884، عامين قبل زواجها من فرويد.

من أنواع الظهور العلني وأؤمن بالمثل القائل أن أفضل زوجة هي تلك التي يقال عنها أقل ما يمكن قوله».

وجوهر القول هو أنها قد عاشت باستقلالية عن زوجها وحيث إنه أعطاها مخصصات الإنفاق على شؤون المنزل وكانت تضمن تحضير مائدة الغداء الساعة الواحدة بعد الظهر تماماً. لم تكلف مارثا نفسها عناء الاطلاع الواسع على عمل زوجها وبشكل عام لم تسافر معه في الإجازات التي لا يكون فيها الأطفال مسافرين أيضاً. وكذلك أقامت حياتها الاجتماعية بمعزل عن زوجها ممارسة الملاطفة الدبلوماسية في العلاقات مع الأصدقاء ومع الأقارب الذين أساء إليهم فرويد. كذلك تجاهلت مطالب فرويد في أن تستغني عن أفراد معينين من مثل صديقتها إليس Elise التي عبرت عنها مارثا بدقة فقالت «تزوجت قبل زفافها».

عندما التقى فرويد بمارثا بيرنيز فإن كل ما رآه فيها هو امرأة شابة وديعة ونحيلة شاحبة. وكادت مارثا أن تتزوج رجل أعمال عجوز لولا أن أقنعها شقيقها إلي بالإعراض عن ذلك، وموضحاً لها أن تحرص على الزواج مِن مَن تحب فقط. وفي الليلة المصيرية من شهر نيسان عام

1882 كانت مارثا تزور عائلة فرويد عندما وصل سيغموند إلى البيت قادماً من مكان عمله في الجامعة ومن عادة سيغموند ألا يتوجه مباشرة إلى غرفته للدراسة. وفي ذلك المساء رأى مارثا تتسامر بمرح مع شقيقاته وكان لذلك وقع على قلب هذا الشاب، فقد كتب رسالة بعد أعوام إلى مارثا يخبرها أنه أصبح شخصاً خرافياً «منذ أن علمت أن النظرة الأولى للفتاة الصغيرة وهي جالسة عند الطاولة الطويلة المألوفة جداً بالنسبة لي تتحدث بذكاء بينما هي تقشر التفاحة بأصابعها الناعمة، قد استطاعت أن تحدث لي ارتباكاً مديداً جداً».

صعقت العائلة عندما جلس سيغموند عند الطاولة وأخذ يشارك في الحديث وأصبح يفعل ذلك كل مرة تبدو فيها مارثا. وخلال بضعة أسابيع أخذ سيغموند يرسل وردة في كل يوم إلى مارثا.

كان المراقب الشديد والطالب المجد والعالم العقلاني يدعو مارثا بيرنيز بـ«الأميرة الجميلة التي يتساقط من شفتيها الورد واللؤلؤ».

لقد أحبها سيغموند بشغف من اللحظة التي التقى بها.

ومن سوء طالع فرويد وبيرنيز أن أحداً منهما لم يملك المال اللازم للزواج. ولأسباب متنوعة تأخرا في إبلاغ عائلتيهما عن خطوبتهما لمدة ستة أشهر. أثناء ذلك الوقت قررت والدة مارثا أن تعود إلى هامبورغ على

الرغم من أن شقيقة مارثا مينا Minna كانت قد عقدت خطوبتها على رجل من ڤيينا. اضطر كل من بيرنيز وفرويد أن يعيشا في مدينتين مختلفتين لمدة ثلاث سنوات من أصل الأربع سنوات ونصف سنة من فترة الخطوبة. وهذا لم يكن أمراً غير اعتيادي فقد بقيت والدة مارثا ذاتها مخطوبة لمدة تسع سنوات. إلا أن الأمر بالنسبة إلى فرويد كان فترة عذاب شديد. ولكي يبقيا على صلة ببعضهما البعض تبادل فرويد وبيرنيز الرسائل بشكل متناوب يوم برسالة ويوم بلا رسالة. أظهرت رسائل فرويد إخلاصه وشروطه. فقد ألحّ عليها أن تكون فاترة مع معجبيها وأمرها أن تنادي ابن عم لها بلقبه بدلاً من اسمه الأول. وبلغ به الحرص عليها أن طلب منها أن تقلع عن رياضة التزحلق عل الجليد وإلا فإنها ستفقد توازنها وتتكئ على ذراع رجل آخر. كما عبر عن اعتقاده بأن إعطاء حق التصويت للنساء أمر سخيف، على اعتبار أن مسؤولياتهم تنحصر في المنزل. كذلك طالب مارثا أن تستغني عن ديانتها اليهودية الأرثوذوكسية عند الزواج. وبالفعل توقفت مارثا عن ممارسة ديانتها اليهودية لكنها كانت منزعجة في أعماقها من مطلب فرويد. بعد مماته أشعلت القناديل التقليدية للدلالة على عيد السبت اليهودي في ليلة كل يوم جمعة.

وكان فرويد قد وصف منزل المستقبل لأسرته على أنه مكان تجتمع فيه جميع مواصفات الراحة لدى الطبقة الاجتماعية المتوسطة:

obeikandl.com

كل ما نحتاج إليه غرفتان أو ثلاث غرف حيث نستطيع أن نعيش ونأكل ونستقبل الضيف وإلى موقد يحتفظ بالنار التي تطهو الطعام. والأشياء الملحقة كالطاولات والكراسي والأسرّة والمرآة وساعةٌ نذكر السعداء بمرور الوقت وكرسي مريح ذو ذراعين لقضاء ساعة من أحلام اليقظة العذبة، وسجادات تساعد ربة المنزل على إبقاء الأرض نظيفة وبياضات مطوية على شكل رابطة عنق ومتوضعة على الرفوف، وملابس مكوية حديثاً وقبعات مزدانة بالأزهار الاصطناعية ولوحات جدارية وكؤوس المياه العذبة وللخمر في المناسب الاحتفالية وأطباق وصحون ومكان للأطعمة المحفوظة لوقت الشدة الذي يأتي فجأة وعند قدوم ضيف بشكل غير متوقع وحزمة مفاتيح تقرقع بصخب ومصباح وديع وكل شيء يجب أن يبقى على نحو مرتب ومنظم، وإلا ستعترض ربة البيت التي جعلت قلبها علي كقطعة من قطع الأثاث.

في رسالة أخرى علق فرويد فيها قائلاً «لدي انطباع أن أفضل امرأة في العالم تعتقد اعتقاداً لا هوادة فيه فتعتبر أن الزوج مكمل ضروري ـ وهذا حق ـ للبيت السعيد».

إن تقديم الدعم للزوجة والبيت أمر مكلف مادياً، إذ قبل ستة أشهر من زواجهما وبينما كانا يحاولان تدبير المال اللازم لتأمين أثاث المنزل، كتب فرويد إلى بيرنيز قائلاً: «آه يا عزيزتي الصغيرة، ليس عندك إلا علة صغيرة واحدة وهي أنك لم تربح اليانصيب قط». عندما غادر مختبر بروك لم يكن معه سيولة نقدية وكان يتخلف بثلاث سنوات عن أقرانه الذين باشروا مزاولة مهنة الطب فور حصولهم على درجاتهم العلمية. من عام 1882 إلى عام

1885 عمل فرويد جاهداً لاكتساب الخبرة التي يحتاجها في ممارسة الطب العيادي.

لقد تدرب في معظم الأقسام الطبية بما في ذلك أقسام الجراحة والجلدية والعينية بالإضافة إلى الطب النفسي والأمراض العصبية. ومع ذلك أراد فرويد أيضاً أن يصنع اكتشافاً عظيماً. فإن وجد بعض النتائج الجديدة المثيرة فسوف يصبح مشهوراً. وإن أصبح مشهوراً فسوف تكون عنده عيادة خاصة كبيرة وسوف يحصل على المال الوفير ليقيم حفل زفافه على مارثا بيرنيز دون أدنى تأخير. وبسبب حماسه الشديد للزواج تسببت مارثا حبيبة فرويد بشكل غير مباشر بواحدة من أهم النكسات العلمية التي تعرض لها. أثناء سعيه وراء الشهرة جرب طريقة جديدة في صباغة النسيج ـ وهي عملية صبغ الخلايا لكي تبدو بشكل أوضح تحت المجهر ـ مستخدماً كلوريد الذهب gold chloride إلا أن تقانته هذه لم تعط نتائجاً ثابتة. كما نشر أيضاً ورقة بحث عن مريض يعاني من نزف دماغي إلا أن ذلك أخفق في جلب التقدير له. فاحتاج إلى البحث عن فكرة أفضل. وحتى يكون قادراً على الزواج من «فتاته الحلوة والناعمة» كما كان يخاطبها في رسالة تقدمه للخطوبة منها، بدأ فرويد يستكشف عن عقار الكوكائين.

وفي باكورة العقد الذي يبدأ بعام 1880 لم تكن استخدامات الكوكائين شائعة أو رديئة السمعة كما هي

obeikandl.com

حالها اليوم. فلم يكن العلماء قد بحثوا بعد خصائص هذا العقار، أصبح فرويد مهتماً بالكوكائين بعد قراءته تقريراً لأحد أطباء الجيش الألماني يقول فيه أن هذا العقار يزيد من قدرة التحمل عند الجنود. وحال فرويد حال كثير من الباحثين الآخرين في وقتنا الحاضر فقد قرر أن يختبر هذا العقار على نفسه وكانت له دواعيه الشخصية. لقد عانى فرويد لسنوات كثيرة من نوبات الاكتئاب. لقد أصبح متعباً ومؤرق المزاج وغير قادر على العمل. وحينما أخذ جرعات صغيرة من الكوكائين وجد أنها تساعده على العمل وعلى اكتساب طاقة جديدة. أصبح فرويد سعيداً بهذا الاكتشاف وكما جاء في رسالته إلى مارثا «وإذا كنت عنيدة فسترين من الأقوى فتاة صغيرة ناعمة تأكل قليلاً من الطعام أمام رجل كبير متوحش يحتوي جسمه على الكوكائين. في نوبة الاكتئاب الشديدة الأخيرة التي اعترتني أخذت الكوكا مرة ثانية فرفعتني جرعة صغيرة إلى الأعالي على نحو رائع. والآن أنا مشغول تماماً بجمع الآثار الأدبية للبحث عن أغنية الامتنان لهذه المادة السحرية».

لم يعان فرويد ذاته من أية آثار جانبية من هذا العقار، بل واصل العمل لينشر ورقة بحث عنوانها «في موضوع الكوكا on coca» (وهو النبات الذي تم استخراج الكوكائين منه) في شهر تموز من عام 1884 اقترح فرويد الكوكائين كمخدر موضعي وكعلاج للإرهاق وأمراض المعدة والإدمان على المورفين، حتى إنه أرسل عينات

من العقار بالبريد إلى بيرنيز موصياً إياها أن تأخذ جرعة عندما تشعر أنها متعكرة المزاج. كانت حماسة فرويد سبباً في سقوطه. ففي صيف عام 1884 ذكر فرويد خصائص الكوكائين المسببة للخدر إلى صديقين مختصين في طب العيون ليوبولد كونيغستاين Leopold Königstein وكارل كوللر Carl Koller حتى إن فرويد قد أعطى جرعة من الكوكائين إلى زميل متدرب في الطب الذي صرح أن هذا العقار قد سبب الشعور بالخدر في شفتيه ولسانه. بدأ فرويد وكونيغستاين بتجريب آثار الكوكائين على عين كلب، إلا أن البحث توقف بسبب عطلة فرويد الصيفية في شهر تموز.

اندفع فرويد مسرعاً للقاء بيرنيز التي لم يزرها منذ سنة. وحينما عاد في شهر أيلول وجد أن كوللر وكونيغستاين قد أجريا وأعلنا عن تجاربهما في استخدام الكوكائين كمخدر موضعي على العين، ومن أجل الإنصاف كان كوللر قد حاول أن يجد مخدراً موضعياً للاستخدام في عمليات العين الجراحية منذ بعض الوقت قبل أن يعطيه فرويد الجرعة المثيرة. أدى اكتشاف كوللر إلى نقلة نوعية في جراحة العين وجلب له شهرة فورية. أما فرويد فقد بقي طبيباً شاباً فقيراً غير متزوج وغير معروف.

لم يكتف تأثير الكوكائين على حياة فرويد بهذه النهاية العلمية المأسوية بل كان قد وصف الكوكائين لأحد

obeikandl.com

الأصدقاء ويدعى إرنست ڤان فليستشل ـ ماركو Ernst Von Fleischl-Markow للاستشفاء من الإدمان على المورفين بمساعدة دواء فرويد تمكن فليستشل ماركو أن يتوقف عن تعاطي المورفين، لكنه سرعان ما أصبح مدمناً على الكوكائين واستمر في إساءة استخدام العقار إلى مماته في عام 1891. وبينما كان جسد وعقل فليستشل ماركو يتحللا مع أخذ الحقن يومياً بدأت التقارير الطبية عن إدمان الكوكائين تصل من كافة أنحاء العالم. تعرض فرويد للهجوم بسبب تحمسه للكوكائين وانتهى به الأمر إلى الإقلاع عن الموضوع كلية.

إلا أنه استمر هو نفسه في تناول العقار أحياناً لعدة سنوات ليعينه على تحمل أطراف النزاع خلال الفترة التي قضاها في باريس ولمكافحة صداع الشقيقة المتكرر وآلام المعدة وليخفف من تورم الأنف. ومن المؤسف أن كان للكوكائين أثراً أسوأ مما كان عليه الحال بالنسبة لمشكلات الأنف والشقيقة عند فرويد.

ومن المفرح أن أبقى فرويد نفسه مشغولاً بالتجريب على الكوكائين. لقد مكنه عمله كطبيب في مشفى وكمساعد نشيط لأستاذه القديم بروك أن يحصل على منحة دراسية خارجية. ففي خريف عام 1885 غادر ڤيينا ليزور حبيبته مارثا ومن هناك بدأ رحلته إلى باريس ليدرس تحت إشراف النجم الطبي الفرنسي جين مارتن تشاركو Jean Martin Charcot لمدة خمسة شهور في

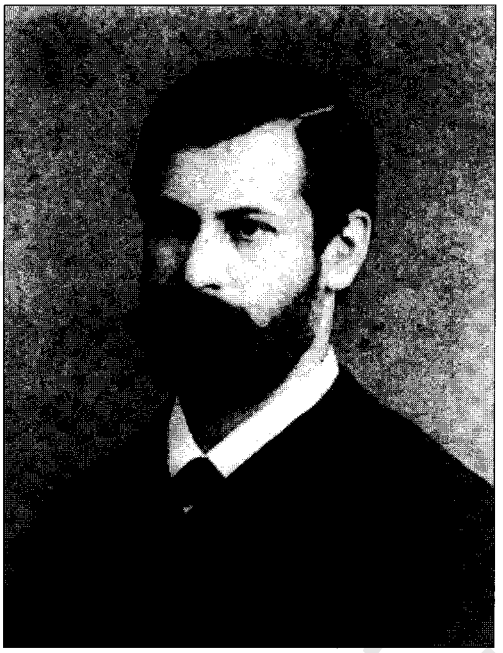

سيغموند فرويد في عام 1885 قبل سفره بقليل إلى باريس للدراسة مع الطبيب الفرنسي جين مارتن تشاركو.

مشفى سالبترير Salpêtriere. أحدث تشاركو ابتهاجاً عند الأمة الفرنسية من خلال استخدامه للتنويم المغناطيسي. وفي سنوات العقد الذي يبدأ بعام 1870 ترأس جناحاً كبيراً في مشفى للمرضى الذين يعانون ما كان يطلق عليه حينئذ بالصرع الكبير grand malepilepsy، وهو مرض في الجهاز العصبي يتميز بحدوث نوبات اختلاجية. يفقد المرضى خلال هذه النوبات الوعي ويصبح لونهم شاحباً جداً ويظهر الزبد على الفم ويصاحب ذلك اختلاجات وكان في الجناح أيضاً مرضى آخرين لا يعانون من مرض الصرع لكنهم اكتسبوا بالتعلم نوبات الصرع فقيل عن هذه الفئة الثانية من المرضى أنها تعاني من الهستيريا.

حصل اضطراب الهستيريا على عدد كبير من التعريفات عبر القرون. تعود جذور المصطلح ذاته إلى كلمة يونانية تعني الرحم (وهي أيضاً مصدر كلمة الرحم Uterus وكان يعتقد أنه مرض له صلة بأعضاء التكاثر عند المرأة منذ زمن مصر القديمة وحتى القرن التاسع عشر. وكان للإغريق القدماء نظرية مفصلة عن الهستيريا، حيث اعتقدوا أن المرأة التي لا تقيم علاقات جنسية كالأرملة أو العانس ستشهد تغيرات في رحمها.

إذ يجف الرحم ويصبح أقل وزناً ويطفو نحو أعلى الجسم. فإذا حصل أن استقر الرحم في البلعوم ستشعر المرأة بكتلة في بلعومها وقد تواجه صعوبات في التنفس. كتب الطبيب الإغريقي هيبوقراط Hippocrates قائلاً: «عندما تعاني المرأة من الهستيريا أو من مخاض عسير فإن نوبة من العطاس تكون مفيدة لمثل هاتين الحالتين». ربما يدفع ذلك الرحم نحو الخلف إلى موقعه الأصلي. في القرن السادس عشر أظهر عدد من علماء التشريح المختلفين أن الرحم مرتبط بإحكام في الجسم ومن غير المحتمل أن يتحول فيه. كما صرح طبيب إنكليزي يدعى توماس سيدنهام Thomas Sydenham أن «المحن السابقة» أو الرضوض النفسية هي سبب المعاناة من الهستيريا.

إلا أنه لا يزال ينظر إلى الهستيريا على أنها مرض المرأة. قبيل عام 1813 ادعى الطبيب الفرنسي فيليب بينيل Philippe Pinel، الذي اشتهر بتحرير المرضى المحجور عليهم في المصحات العقلية من القيود والأصفاد أثناء حدوث الثورة الفرنسية، أن الهستيريا هي نتيجة للحرمان الجنسي عند المرأة. حينما تكون المرأة المحرومة جنسياً غير متزنة عاطفياً وتكون قد انغمست من قبل في موضوع الجنس بطرائق أخرى (كقراءة المجلات الجنسية) عندئذ ستظهر عندها الهستيريا. وللاستشفاء من هذا المرض أوصى ضحايا المرض اللاتي يعانين من حيضات غير منتظمة أن يستعيدوا عمليات الطمث المنتظمة بواسطة مجموعة متنوعة من العلاجات وأن تمارس النساء عمليات

الجماع الجنسي مع أزواجهن قبل حلول فصل الشتاء.

قبيل دخول فرويد إلى كلية الطب، لم تكن الأمور قد اختلفت كثيراً عن ذي قبل إلا أن الهستيريا لم تعد مرض النساء على وجه التحديد، فقد كان هناك تقارير كثيرة عن توافر ضحايا للمرض من الذكور، ومع ذلك ظل ينظر إليه على نطاق واسع أنه ناجم عن الرغبات الجنسية المحبطة.

رأى كثير من الأطباء أن الهستيريا ما هي إلا تجل لعيوب فطرية عند النساء. وقبل هذا وذاك ألم تك النساء خاضعات لعواطفهن وغير متزنات بالفطرة؟ كما لاحظ البعض الآخر أن الهستيريا هي أنجع طريقة عند النساء لكي يتمردن على مسؤولياتهن النسائية المفروضة عليهن. إن المرأة التي لم تكن راضية على أن تعامل كمجرد أم أو ربة منزل تكدح في المحافظة على بيتها وتلبية حاجات زوجها وأطفالها لا تستطيع أن تترك وظيفتها هذه بسهولة وعوضاً عن ذلك تستطيع أن تصبح مريضة فتتحرر من أعمال المنزل وتبتعد بسهولة عن أطفالها ويسعى زوجها إلى القلق عليها جاهداً في إحضار

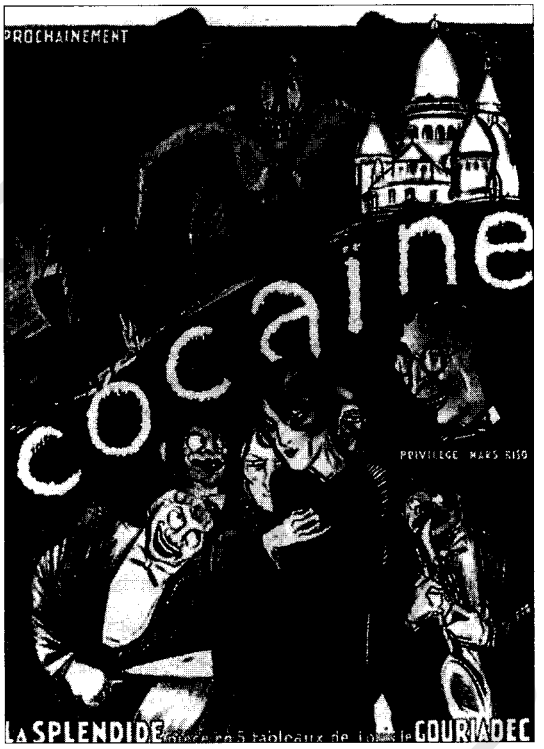

خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر اختبر كثير من العلماء ومنهم فرويد الكوكائين على أنفسهم. لكن الباحثين أضحوا بسرعة واعين للمخاطر الناجمة عن استخدام هذا العقار الفعال. هذا الإعلان من مسرحية فرنسية تمثل بعض جوانب الخطورة المصاحبة لهذا العقار.

الأطباء والأدوية لها، إن باستطاعة المرأة الهستيرية أن تتحكم بأهل بيتها وفي الوقت ذاته تتحرر من الواجبات التي تمقتها. وبالطبع لا تقصد ضحية المرض بأي حال من الأحوال أن تكون مريضة أو أن تفتعل الأعراض لكنها «تتحدث من خلال جسدها» تقول بمرضها الشيء الذي لا تستطيع التعبير عنه مباشرة. اقترح بعض الأطباء علاجات جراحية مريعة أو «علاجات الراحة» حيث يتم فيها عزل المريضة عن عائلتها وتوضع على سرير في غرفة مظلمة ولا يسمح لها بالخروج منها لمدة شهر. ومهما تكن العوامل المسببة للهستيريا فإنها لم تبدو في أغلب الأحيان على أنها كانت مرض النساء في القرن التاسع عشر رغم وجود بضع قليل من الضحايا الذكور.

في سنة 1885 سافر فرويد إلى باريس ليدرس مع جان ـ مارتن تشاركو للدراسة حول مرضى الصرع والهستيريا.

بعد الحرب العالمية الأولى، اختفى المرض فعلياً وبقي الباحثون يتساءلون فيما بينهم عن سبب حدوث هذه الظاهرة. أفاد بعضهم أن ذلك يعود إلى التغيرات التي طرأت على الظروف الاجتماعية، وادعى آخرون توقف أطباء القرن العشرين عن تشخيص الهستيريا كمرض رغم استمرار العديد من المرضى في إبداء «الأعراض الهستيرية». أما تجربة فرويد مع الهستيريا فيمكن التعرف عليها من خلال طبيبين فرنسيين الأول تشاركر والثاني بول بريكيت

Paul Briquet. في عام 1859 اتخذ بريكيت خطوة جريئة ما جرى فعلياً دراسة مسحية للأعراض التي تبدو عند 430 مريضاً هستيرياً مقيمين في مشفى تشاريت Hospital de la Charite في باريس، فاكتشف حقيقتان تناقضان الفرضية الجنسية:

الحقيقة الأولى هي أن رجلاً واحداً يعاني من الهستيريا مقابل 20 امرأة مريضة بالهستيريا والحقيقة الثانية هي أنه في الوقت الذي نادراً ما تعاني المربيات من الهستيريا، فإن كثيراً من المومسات يعانين منها. من الواضح أن الحرمان الجنسي ليس هو السبب لهذا المرض. أفاد بريكيت أن الهستيريا هو مرض في الجهاز العصبي معرفاً إياه على أنه «عصاب (مرض عصبي) الدماغ ويتجلى بشكل رئيسي باضطراب في الوظائف الحيوية ذات الصلة بعملية التعبير عند العواطف والانفعالات» ووفقاً لما يقوله بريكيت: تنشأ الهستيريا عند الأفراد الحساسين عندما تغمرهم مشاعر عنيفة.

اعتقد كل من تشاركو وبريكيت أنه ستظهر عند الأشخاص الهستيريون نوبات اختلاجية حينما يشعرون بانفعال شديد أو حينما يتعرضون للشدة النفسية. إلا أن هذه النوبات تختلف عن النوبات الصرعية. حدد تشاركو ومساعده أربع مراحل للهجمة الهستيرية وجعل ذلك معياراً للتمييز بين مرضى الصرع ومرضى الهستيريا والمراحل الأربع هي «أورا Aura» أو التخدير القبلي من

obeikandl.com

الهجمة وثانيها الهجمة ذاتها، عندما يصيح المريض، وثالثها فقد الوعي والمعاناة من التشنجات وهي مرحلة التهريج Clownish عندما يبدي المريض إيحاءات تشبه التعبيرات المسرحية للعواطف الرئيسة ورابعها انحلال النوبة وذلك عندما يبكي المريض أو يضحك كان تشاركو مأخوذاً بالغاية الظاهرة التي تقف وراء هذه الهجمات إذ يبدو المرضى وكأنهم يحاولون أن يخبرونا بشيء ما. كما كان مأخوذاً أيضاً بالطريقة التي تتشابه فيها الهجمات مع تقارير عن الاستحواذ الشيطاني للأرواح التي تحاول أن تدخل إلى الجسد. لقد كان تشاركو مثل فرويد متحمساً لأن يبين أن جميع أفعال العفاريت والأرواح والأشباح الشريرة يمكن تفسيرها بواسطة العلم.

من الواضح أن المرضى الهستيريين لم يكونوا على يقين في أنهم لا يعانون من مرض عضوي وأنهم لا يعانون من الصرع. ويشبه ذلك إلى حد كبير حال المرضى المنومين مغناطيسياً الذين لا يستطيعون تذكر التعليمات المعطاة لهم من قبل المنوِّم بعد أن يستفيقوا من غشيتهم. أصبح تشاركو تباعاً لذلك مهتماً بالطرائق التي تستطيع فيها الأفكار، التي لا يصل إليها الوعي الطبيعي، أن تؤثر على العقل.

في عام 1880 كان اهتمامه منصباً بشكل رئيسي على الشلل الهستيري. لا يبدي هذا النوع من الشلل النفسي الأعراض التي تبديها أنواع الشلل العضوي. وعلى سبيل

المثال لاحظ فرويد ذاته أنه في الوقت الذي تكون فيه أنواع الشلل العضوي بعامة أكثر حدة في أجزاء الجسم التي تبتعد عن الجذع كالقدمين واليدين فإنه من الممكن أن يكون الكتفين في الشلل الهستيري أكثر تأثراً.

كتب فرويد فيما بعد عن الهستيريا قائلاً «أنها تتصرف وكأن بنية الجسم غير موجودة أو كأنها لا علم لها عنه». وبعبارة أخرى يتجلى الشلل الهستيري وفقاً للطريقة التي يعتقد بها الناس عن آلية عمل الشلل المفترضة وليس كما يتجلى الشر فعلياً في الواقع. لقد كانت قفزة قصيرة بالنسبة إلى تشاركو عليه أن يقفزها من البحث في الهستيريا، حيث لا يعلم المريض ذكراً كان أم أنثى أنه مريض، إلى دراسة التنويم المغناطيسي، حيث لا يعي الشخص المنوَّم مغناطيسياً بالتعليمات التي تتحكم بسلوكه.

لم يستعرض تشاركو الفرق بين الشلل الهستيري والشلل العضوي فقط بل استطاع أيضاً أن يحدث حالة شلل هستيري لدى الأفراد الخاضعين للتنويم المغناطيسي. أظهر تشاركو أن الأمراض الهستيرية ذات أساس نفسي وليس عضوي وأن هذه النوبات الاصطناعية والأعراض الغريبة الأخرى هي في النهاية لا تبدأ من الجسد وإنما من العقل.

وصل فرويد إلى باريس مثل المسكين في قاعة الملك، لقد كان طالباً شاباً في الطب ونمساوياً يتكلم

الفرنسية بصعوبة ويهودياً في عالم الأميين (الغوييم) Gentiles وشاباً انفصل كليةً عن أسرته وأصدقائه لأول مرة في حياته. تشاركو من ناحية أخرى كان أشهر طبيب في فرنسا على الإطلاق يقع بعد لويس باستور Louis Pasteur مكتشف لقاح داء الكَلَب ومخترع عملية البسترة. وهي طريقة للقضاء على العضويات الضارة في اللبن والأطعمة الأخرى. ومن خلال قوة الإدارة، وبمساعدة موهبته السياسية وزوجته الفنية جعل تشاركو من مشفى سالبترير واحدة من أهم المدارس الطبية الفاخرة في فرنسا. وبالفعل ليس هناك طبيب في الأمراض العصبية مشهور في فرنسا إلا وقد درس فيها. إن استعراض تشاركو الأسبوعي لمرضى الهستيريا ومحاضراته عن علم الأعصاب جذبت حضوراً كبيراً من المشاهدين.

وصف فرويد انطباعه الأول في رسالة بعثها إلى مارثا بيرنيز:

> «قَدِم إم. تشاركو الساعة العاشرة، وهو رجل طويل القامة يبلغ من العمر ثمانية وخمسون، ذو قبعة حريرية على رأسه بعينين غامقتين ذواتا فضول طفيف (إحداهما غير معبرة ولها نظرة باتجاه الداخل)، وله شعر طويل مثبت خلف أذنيه، ذو حلاقة ناعمة للذقن ووجه ذي ملامح معبرة وشفتين ناتئتين وممتلئتين وباختصار، يشبه قسيساً دينوياً يُتوقع منه حصافة كبيرة ويعرف كيف يحيى حياة سعيدة».

لقد أمتع تشاركو الفنانين وجعل رؤوس رؤساء الدول تنحني أمامه وكان يدير مشفاه من بعيد، ونادراً ما كان

يمضي وقتاً في أقسام المشفى مع طلابه. في عام 1885 كان يستعرض بانتظام أمام الردار «المراحل الثلاث للهستيريا» التي اكتشفها عند مرضى مختلفين. ولسوء الطالع أن جعل عدم الانتباه عند تشاركو أن يكون غير مدرك بأن مرضاه الأذكياء القابلين للإيحاء كانوا قد تدربوا مراراً من قبل على أداء المراحل الثلاث للهستيريا بواسطة منومين غير أكفاء يعملون في أقسام المشفى الذين ساعدوا على تشكل المرض عندهم عوضاً عن معالجتهم.

كتب فرويد إلى بيرنيز عندما جاء أول مرة «أعتقد أنني أتغير كثيراً، إن تشاركو الذي يعتبر واحداً من أعظم الأطباء ورجلاً يتمتع بفطنة فذة قد قضى ببساطة على أفكاري وأهدافي... الذي أعرفه بكل تأكيد هو أنه لا أحد في هذا العالم استطاع أن يؤثر بي كما فعل هو». لقد أكثر فرويد في تشاركو حرصه الشديد على اكتشاف دليل عضوي لأسباب وآليات المرض. أثناء إحدى المحاضرات الطبية، أحب فرويد أن يتذكر أحد الطلاب الذي خالف الأستاذ الكبير قائلاً «لكن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنه يناقض «نظرية يونغ هيلمهولتز Young-Helmholtz» أجاب تشاركو «النظرية جيدة لكنها لا تمنع الأشياء في الواقع من الحدوث». أخذ فرويد هذه المقولة على أنها شعاراً له. ولسوء الحظ، فعل تشاركو الأمر ذاته حينما لم يحاول أبداً أن يفسر آلية عمل تنويمه المغناطيسي. أتى فرويد إلى مختبر تشاركو ليدرس التغيرات التشريحية في أدمغة الأطفال المشلولين وأراد أن يجري تشريحاً تحت المجهر.

obeikandl.com

وخلال الأسابيع الستة من قدومه أعرض فرويد عن المشروع. فقد أدرك أنه لم يصبح بعد جزءاً من حلقة تشاركو المقربة منه من الطلاب المقربين الموظفين المشاركين في البحث. لقد بقي مجرد عابر سبيل لم يستحق حتى الدعوة إلى الحفلات الاجتماعية التي كان يقيمها تشاركو. إن شعوره بالإحباط والتجاهل جعله على وشك أن يغادر باريس عائداً إلى بيرلين في بداية شهر كانون الأول. بعد ذلك حاول محاولة أخرى للانضمام إلى حلقة تشاركو المقربة منه. وفي رسالة مكتوبة بلغة فرنسية ممتازة بمساعدة صديق يجيد اللغة، عرض فرويد على تشاركو أن يترجم له مجلده الثالث من المحاضرات عن الجهاز العصبي إلى اللغة الألمانية. قبل تشاركو العرض وبدأ فرويد عمله الحقيقي في سالبيتريير مصبحاً تلميذ تشاركو.

وقبيل وقت مغادرة فرويد لباريس بشكل نهائي في 28 شباط من عام 1886 كان قد أضحى عضواً كاملاً في عصبة تشاركو. وكان قد زار منزل تشاركو الممتلئ بإسراف بالتحف عدة مرات وحضر فيه ثلاث حفلات. ومع ذلك لم يستمتع بحضور هذه الحفلات لكنه استمتع بكونه مدعواً إليها. أشار فرويد إلى تشاركو في كتاباته المتأخرة على أنه واحد من أعظم أساتذته ولعل ذلك يعود إلى اعتماد أعمال فرويد إلى حد كبير على أفكار تشاركو.

obeikandl.com

في باريس، أجرى فرويد عدداً من الملاحظات العلمية تبين له فيها أن الحرمان الجنسي ليس هو السبب الوحيد في حدوث الهستيريا، إذ أن الهستيريا متلازمة يمكن أن تتأثر بفعل الخبرات النفسية عند المرضى. كما يظهر أن هناك صلة بين الهستيريا والتنويم المغناطيسي تقوم على آلية مجهولة، لا يستطيع المريض أن يكشف النقاب عنها وكانت هذه الفكرة الأخيرة حاسمة بالنسبة إلى فرويد في أعماله اللاحقة. لدى مرضى الهستيريا أكثر من حالة واحدة من حالات الوعي أو الشعور إذ بمقدورهم أن ينفذوا أوامراً معطاة لهم وهم في فترة الغشية، بعد أن يخرجوا من حالة التنويم. وكما جاء في كتابات فرويد المتأخرة «حصلت على أعمق انطباع عن احتمال وجود عمليات عقلية فعالة بقيت رغم ذلك خافية

مشفى تشاركو السالبتيرير كانت واحدة من أفخم المؤسسات الطبية في فرنسا قاطبة.

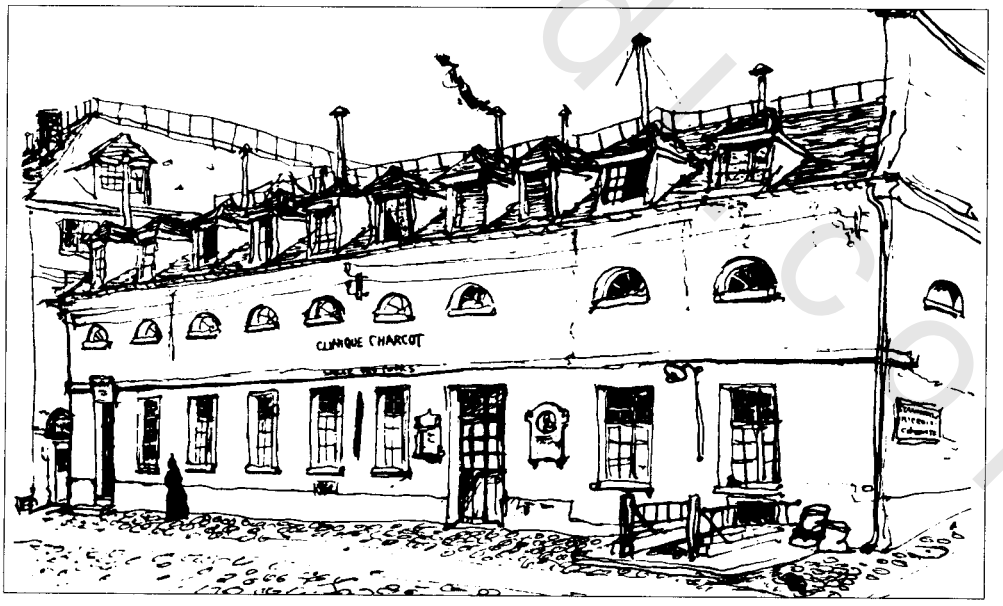

صعود وهبوط التنويم المغناطيسي

لقد كان التنويم المغناطيسي إجراء فاقد الشعبية بشدة حينما أعاد إحياءه تشاركو كطريقة في معالجة الهستيريا في أعوام العقد الذي يبدأ بعام 1880. وقبل قرن من الزمان أثار طبيب ألماني يدعى فرانز أنطون مسمر (Franz Anton Mesmer) شعبية لنظرية «المغناطيسية الحيوانية» والتي مفادها أن سبب المرض يعود إلى سوء توزيع السيالة المغناطيسية في الجسم. يفترض في هذه السيالة أن تصل بين الإنسانية والأرض والنجوم. صنع مسمر جرات أسماها باكويتس (Baquets) ليجمع فيها السيالة من أجل أزهاره. بإمكان التنويم المغناطيسي أن يعيد توزيع هذه السيالة وأن يشفي المريض. كان مسمر يجلس أمام مريضة محدقاً مباشرة في عينيها ومحرراً يداه أمام وجهها وبعد ذلك يلمس الجزء من الجسم الذي تعرض للإصابة. يشعر كثير من المرضى بأحاسيس غريبة أو بالضعف عندما كان يلمسهم مسمر. كما ادعى الكثير الشفاء من المرض. أدخل مريدوا مسمر تحسينات على طريقته وأدخلوا مرضاهم في نوم مغناطيسي أو غشية. أثناء النوم المغناطيسي يستطيع المرضى أن يتذكروا حياتهم بشكل كامل كما يستطيعون أن يشخصوا عللهم. وعندما يستيقظون لا يتذكرون شيئاً مما جرى في غشيتهم. نشر مريدوا مسمر كتباً حول استحداث النوم المغناطيسي والشفاء من الأمراض.

على الرغم من أن حركة مسمر جذبت آلاف المريدين وانتشرت في أنحاء أوروبة ووصلت إلى الولايات المتحدة فقد اضمحلت بسبب غرابتها. لم يعُر الأطباء أي أهمية للمسمرية كطريقة جديدة في المعالجة وبينوا أن ليس لنظرية المغناطيسية الحيوانية أي أساس من الحقيقة.

ومع نهاية القرن الثامن عشر انتشر استخدام التنويم المغناطيسي لمعالجة الأمراض في أنحاء أوروبا والولايات المتحدة. إلا أنه ما لبثت هذه الممارسة تتهاوى من عرشها أمام انتقادات لجان علمية متعددة لم تجد فيها أي فائدة طبية.

كان المنوِّمون المغناطيسيون يشيرون إلى حالات الشفاء غير العادية التي تحصل أحياناً على أنها البرهان على صحة طريقتهم بدلاً من تحليل ما حصل لبقية المرضى الذين من الممكن أن يكونوا قد خضعوا إلى عشرات الجلسات التنويمية الموسعة غير الناجحة. وعلاوة على ذلك، كان التنويم المغناطيسي، لعامة الناس غير المتعلمين وجعلهم يشخصون لأنفسهم أمراضهم ويصفون لها العلاج، ممارسة طبية غير قانونية. وفي عام 1784 قامت لجنة ملكية فرنسية بالتحقيق في علاجات مسمر فوجدت أنها غير فعالة على الإطلاق وربما كانت الضربة الأخيرة لمصداقية مسمر على يد كثير من المنوِّمين المغناطيسيين المسرحيين الذين عرضوا المسمرية كشيء للتسلية أكثر منه للمعالجة الطبية. ومع رواج مذهب العقلانية في العالم خسرت المسمرية بريقها وقبيل العقد الذي يبدأ بعام 1850 ذهب نورها واضمحلت إلى حد كبير.

على شعور الإنسان». إن احتواء الهستيريا على أعراض عضوية بفعل العمليات النفسية جعل فرويد يتساءل عن كيفية عمل الدماغ حتى استطاع أن يتسبب للجسم بهذا الحجم من الأضرار. وخلال الفترة التي قضاها في باريس، احتوت مناظرة حول ما إذا كانت الهستيريا مرض وراثي يحدث فقط للأشخاص الذين عندهم القابلية له أم أنه مرض مكتسب مثل مرض الزكام الشائع. كما يمكن طرح السؤال ذاته بالنسبة إلى القابلية لتقبل الإيحاء. لم يكن فرويد متأكداً من صحة رأيه وبقيت هذه المسألة تشغل باله لسنوات طويلة. اعتقد تشاركو أن الميل نحو الهستيريا أمر وراثي ويتم تفعيله بواسطة الرضة النفسية التي تصدم الجهاز العصبي. قادت هذه الفكرة فرويد لأن يسأل عدداً من الأسئلة تتعلق بالعلاقة بين الحالات النفسية والحالات العضوية. كيف تتحول الصدمة النفسية إلى مرض عضوي؟ كيف يستطيع المرء أن يصبح مريضاً بفعل الذاكرة؟ كيف تنشأ الهستيريا؟

بعد العودة إلى ڤيينا، بدأ فرويد بالتفكير في العمليات اللاشعورية وأثر الخبرة العقلية أو النفسية على الأعراض العضوية وتفاعل الرغبات الجنسية والهستيريا والحياة النفسية. استمر في التفكير بهذه القضايا في الأعوام الخمس القادمة. بعد أن غادر فرويد مختبر تشاركو لم يعد يجر أي عمل تجريبي. لقد كانت تجربة فرويد الشخصية في مختبر تشاركو إيذاناً لابتداء حياته المهنية كممارس للعمل العيادي.